تمهيد [١]

مكة قبل الإسلام:

نشأة مكة:

هاجر إبراهيم عليه السلام من العراق إلى الشام، ثم من الشام إلى مصر. وكان يحمل معه في ترحاله هذا رسالة التوحيد، وكانت ترافقه زوجته سارة. وكانت امرأة جميلة، وكان من عادة ملك مصر آنذاك أن يستأثر لنفسه بكل امرأة جميلة. وشاء الله عز وجل أن يصرفه عن سارة. وتنقلب منه بجارية لتخدمها، وهي هاجر أم إسماعيل عليه السلام [البخاري].

ولما كانت سارة عقيمًا، وطعن إبراهيم عليه السلام في السن، وابيض شعره، رأت أن تهب له الجارية هاجر ليتزوجها، لعل الله يرزقه منها ذرية صالحة. وشاء الله عز وجل أن تلد له هاجر ابنه الأول، فسماه إسماعيل [فتوح مصر؛ الأزرقي].

واشتدت الغيرة بسارة عندما ولدت هاجر إسماعيل، فحلفت لتقطعن منها ثلاثة أعضاء [الفتح]. فاتخذت هاجر منطقًا له ذيل. فشدت به وسطها، وهربت مع زوجها، وهي تجر ذيلها لتخفي أثرها عن سارة. ثم جاء بها إبراهيم عليه السلام وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند مكان البيت الحرام، عند دوحة فوق مكان زمزم، في أعلى مكان المسجد، وليس بمكة يومئذٍ أحد، وليس بها ماء. ووضع عندها جرابًا فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفل راجعًا، فتبعته هاجر، فقالت: «يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟» فقالت له ذلك مرارًا، وهو

لا يلتفت إليها، فقالت له أخيرًا: «آللهُ الذي أمرك بهذا؟» قال: «نعم»، قالت: «إذن لا يضيعنا». ثم رجعت. فانطلق إبراهيم عليه الصلاة والسلام حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرى، استقبل بوجهه مكان البيت، ثم دعا الله عزوجل قائلًا: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾، حتى بلغ: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾[إبراهيم:٣٧].

لم يلبث أن نفذ ما عند هاجر من ماء، فعطشت هي وابنها، فكرهت أن تنظر إلى ابنها وهو يتلوى من العطش، فانطلقت حتى قامت على أقرب جبل منها، وهو الصفا، ثم استقبلت الوادي لتنظر، هل ترى أحدًا. فلما لم تر أحدًا هبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدًا. فلم تر أحدًا. ففعلت ذلك سبع مرات، وذلك سعي الناس بينهما كما قال الرسول ﷺ. وفي نهاية المرة السابعة جاءها الملك جبريل عليه السلام وأخذ يبحث بعقبه أو بجناحه عند موضع زمزم، حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه، ثم تغرف منه في سقائها، وهو يفور بعدما تغرف منه، وفي ذلك يقول النبي ﷺ: «**يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم**»، أو قال: «**لو لم تغرف من زمزم لكانت زمزم اليوم عينًا معينًا**» [البخاري]. فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: «لا تخافوا الضيعة، فإن هذا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله» [البخاري].

وبينما هي على هذه الحال، مر بهم أهل بيت من قبيلة جرهم اليمنية القحطانية؛ وعندما وجدوا الماء، استأذنوها في النزول عندها، فأذنت لهم بشرط أن لا يكون لهم حق في الماء، فوافقوا، وأرسلوا إلى بقية أهليهم فنزلوا معهم، وشب الغلام اسماعيل بينهم، وتعلم اللغة العربية منهم، وأعجبهم حين شب، فلما كبر زوجوه امرأة منهم.

[وقيل إن زوجته الأولى كانت من العماليق] [البداية].

وعندما ماتت هاجر جاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ولم يجد حينها ولده إسماعيل بالبيت، فأخبرته زوجه أنه خرج في حاجتهم، وعندما سألها عن عيشهم، شكت إليه مر الشكوى مما يلاقيانه من شدة، فأوصاها أن تقرئه السلام، وتقول له: أن يغير عتبة بيته. فعندما عاد إسماعيل أخبرته زوجته بالذي حدث، فعرف من وصفها أنه أبوه، وفهم الوصية، وفهم أن العتبة تعني زوجته، فطلقها، وتزوج امرأة أخرى. وبعد فترة من الزمان عاد إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - مرة أخرى فلم يجد إسماعيل بالمنزل، وسأل زوجه عن عيشهم، فحمدت الله، وأثنت عليه بما وسع عليهم في الرزق، فأوصاها بأن تقرئه السلام وتقول له أن يثبت عتبة بيته. فعندما عاد إسماعيل وأخبر بما حدث، عرف أباه وفهم وصيته، فأمسك عليه زوجه.

ثم غاب إبراهيم عليه السلام ما شاء الله، ثم عاد، ووجد ابنه من وراء زمزم يصلح نبلًا له، تحت دوحة عظيمة قريبة من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد مع الولد - أي تعانقا -.

فطلب إبراهيم عليه الصلاة والسلام من ابنه أن يعينه بما أمره الله تعالى به، وهو بناء الكعبة على مكان مرتفع قرب زمزم، ففعل، فكان إبراهيم عليه السلام يبني، ويأتيه إسماعيل بالحجارة، حتى ارتفع البناء، فجاءه بحجر المقام فوضعه له، فقام عليه، وكانا يقولان وهما يبنيان-: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧] [البخاري].

ليست هذه هي المرة الأولى التي يعين فيها إسماعيل عليه السلام أباه على طاعة الله تعالى وتنفيذ أمره. فقد ثبت أن إبراهيم عليه السلام عاد إلى مكة عندما شب إسماعيل، وقد أوحى الله تعالى إليه منامًا أن يذبحه قربانًا لله تعالى.

فاستشار إبراهيم عليه السلام ابنه إسماعيل في ذلك قائلًا: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾[الصافات:١٠٢] فأجاب إسماعيل قائلًا: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾[الصافات:١٠٢] [انظر الصافات: ١٠٢ – ١٠٧].

وخرج به إلى منى لتنفيذ أمر ربه، ولما تله للجبين – والسكين بيده – ناداه ربه: ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾. وفداه الله تعالى بذبح عظيم ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ١٠٧﴾[الصافات: ١٠٢–١٠٧]، أي بكبش أملح كبير، فترك الولد وذبح الكبش، وفاز الوالد والولد برضا الله تعالى [زاد المسير].

وعندما فرغ إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام من بناء البيت، أمر الله تعالى نبيه إبراهيم عليه السلام أن يؤذن في الناس بالحج: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾[الحج:٢٧]، فقيل: صعد عليه السلام جبل أبي قبيس أو الحِجر أو الصفا، ونادى باسم الله تعالى قائلًا: «**أيها الناس! إن ربكم بنى لكم بيتًا فحجوه**». فأسمع الله نداءه كل مخلوق، ومن كتب الله تعالى أنه يحج إلى يوم القيامة، فلبى قائلًا: «**لبيك اللهم لبيك**» [تفسير ابن كثير].

ودعا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ربهما عزوجل بما حكاه عنهما القرآن الكريم: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾[البقرة:١٢٩] [تفسير الطبري]. قال الطبري [التفسير]: (وهذه دعوة إبراهيم وإسماعيل لنبينا محمد ﷺ خاصة، وهي الدعوة التي كان نبينا محمد ﷺ يقول عنها: «**أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى...**»). وعاش إسماعيل بجوار البيت الحرام مع أصهاره جرهم إلى أن بعثه الله رسولًا إليهم وإلى كافة من بالحجاز من قبيلة العماليق وأهل اليمن [البداية]. قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤﴾[مريم:٥٤].

وأنجب اثني عشر ولدًا ذكرًا. وقد سماهم محمد بن إسحاق، ونقل ذلك عنه ابن كثير [في البداية]، وأولهما نابت وقيذار. ونابت هو الذي اختير لأن يكون من آباء دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهماالسلام. واختفت حلقات السلسلة الذهبية فيما بين نابت وعدنان لظروف غامضة غير معروفة. وكان عدد الآباء ما بين نابت وعدنان يقدر بستة آباء، وقد عاشوا جميعًا بالحرم المكي، ومع هذا لم تضبط أسماء هؤلاء الآباء الستة.

وقد جزم الرسول ﷺ بنسبه إلى عدنان، أما أجداده ما بين عدنان وإسماعيل فمختلف فيهم. [ابن عساكر].

وعندما مات إسماعيل عليه السلام دفن مع أمه في الحجر، وكان عمره مائة وسبعًا وثلاثين سنة. وينتسب كل عرب الحجاز إلى ولديه نابت وقيذار [البداية].

هذا وتجدر الإشارة هنا إلى أن عهد إبراهيم عليه السلام كان في القرن التاسع عشر قبل الميلاد [أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ].

تعدد بناء الكعبة:

المرة الأولى: عمارة الملائكة، كما روى الأزرقي.

المرة الثانية: عمارة آدم عليه السلام كما روى البيهقي [الدلائل]، وغيره [السبل].

المرة الثالثة: عمارة أولاد آدم عليه السلام كما روى الأزرقي وغيره، عن وهب ابن منبه، وذكره السهيلي، أن الذي بناها شيث بن آدم عليه السلام.

المرة الرابعة: عمارة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام التي ذكرناها، وجزم ابن كثير [البداية] بأن هذا كان أول بناء. قال: «ولم يجئ في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنيًا قبل الخليل عليه السلام ومن تمسك في هذا بقوله: ﴿مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾[الحج:٢٦] فليس بناهض ولا ظاهر، لأن المراد مكانه المقدر في علم الله، المقرر في قدرته، المعظم

عند الأنبياء موضعه، من لدن آدم إلى زمان إبراهيم». وقال الشامي معلقًا على كلام ابن كثير هذا: (... وفيه نظر لما ذكر من الآثار السابقة واللاحقة).

المرة الخامسة والسادسة: عمارة العماليق ثم جرهم، كما نقل الشامي من رواية ابن أبي شيبة وإسحاق بن راهويه في مسنده، وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن علي رضي الله عنه. قال السهيلي: (وقد قيل: إنه بني في أيام جرهم مرة أو مرتين؛ لأن السيل كان قد صدع حائطه، ولم يكن ذلك بنيانًا على نحو ما قدمنا، إنما كان إصلاحًا لما وهى منه، وجدارًا بني بينه وبين السيل، بناه عامر الجارود، وقد تقدم هذا الخبر). [وانظر بناء العماليق في دلائل البيهقي (٢/ ٥٦-٥٧)؛ وأخرج الحاكم الرواية (١/ ٤٥٨) وصححها وأقره الذهبي].

المرة السابعة: عمارة قصي بن كلاب - جد النبي صلى الله عليه وسلم - قال الشامي: (نقله الزبير بن بكار في كتاب النسب، وجزم به الإمام أبو إسحاق الماوردي في الأحكام السلطانية).

المرة الثامنة: عمارة قريش، حين كان للرسول صلى الله عليه وسلم من العمر خمسة وثلاثون عامًا، كما سيأتي ذكره هنا في المبحث الخاص بمشاركة الرسول صلى الله عليه وسلم في بناء الكعبة.

المرة التاسعة: عمارة عبد الله بن الزبير، كما روى الشيخان وغيرهما. وسيأتي ذكرها.

المرة العاشرة: عمارة الحجاج بن يوسف بأمر عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي، كما روى الإمام مسلم. وعندما شكك عبد الملك في سماع ابن الزبير من خالته عائشة رضي الله عنها حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: «**لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية - أو قال: بكفر - لهدمتها وجعلت لها غلقًا وألصقت بابها بالأرض وأدخلت فيها الحجر**»، أكد له الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة - المعروف بالقباع، وأخو عمر بن أبي ربيعة، الشاعر المشهور - أنه سمعه منها، فندم على نقضه وإعادته. [مسلم].

وروي أن الرشيد العباسي عزم على نقضها وإعادتها كما بناها ابن الزبير، فقال له مالك ابن أنس: أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك بعدك، لا يشاء أحد منهم أن يغيره إلا غيره، فتذهب هيبته من قلوب الناس. فصرفه عن رأيه فيه. [البداية].

المرة الحادية عشر: بناء السلطان مراد خان العثماني، سنة ١٠٤٠هـ - ١٦٣٠م، ذكره محمد علي بن علان في رسالته التي بهذا الشأن، وسببه ما فعله السيل بالكعبة، حيث أسقط منها بعض الأجزاء. [إخبار الكرام للمكي].

دلت الآيات القرآنية التي نزلت في شأن بناء الكعبة والأحاديث الصحيحة التي رواها البخاري وغيره على أن أول من بنى الكعبة هو إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام. وقد كان مكان البيت ربوة عالية مشرفة على ما حولها، معروفة للملائكة، ولمن سبق من الأنبياء، وبقعة مشرفة معظمة من قديم الزمان حتى جاء الخليل فأسس قواعده وبناه.

أما الروايات التي تقول ببناء الكعبة قبل هذا فأغلبها موقوفة على بعض الصحابة أو التابعين، ورواها أهل التاريخ والسير كالأزرقي والفاكهي وبعض المفسرين والمحدثين الذين لا يلتزمون إخراج الروايات الصحيحة أو الحسنة. وقد مر بك قول ابن كثير: (ولم يجئ في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنيًا قبل الخليل عليه السلام).

ويقول أبو شهبة [السيرة] بعد ترجيحه كلام ابن كثير-: (ولا ينافي ما رجحناه وذهبنا إليه ما روي: أنه ما من نبي إلا وقد حج البيت)، ما رواه أبو يعلى في مسنده بسنده عن ابن عباس قال: حج رسول الله ﷺ، فلما أتى وادي «عُسْفَان» قال: «**يا أبا بكر، أي وادٍ هذا؟**»، قال: هذا وادي عُسْفَان، قال: «**لقد مَرَّ بهذا نوح وهود وإبراهيم**

على بَكَرَاتٍ لهم حُمْرٍ، خَطْمُهُمُ اللِّيفُ، وأُزُرُهم العَباء، وأَرْدِيَتُهُم النِّمار، يحجون البيت العتيق»، وما رواه الإمام أحمد في مسنده بسنده عن ابن عباس، قال: لما مر النبي ﷺ بوادي عُسْفَان حين حج قال: «**يا أبا بكر، أي وادٍ هذا؟**»، قال: وادي عُسفَان، قال: «**لقد مَرَّ به هود وصالح عليهما السلام على بَكَرَاتٍ لهم حُمْر، خَطْمُهَا اللِّيف، أُزُرُهم العَباءُ، وأَرْدِيَتُهُم النِّمَارُ، يلبون يحجون البيت العتيق**»، إسناده حسن. وقد تقدم في قصة نوح (١/ ٢٧٨) عليه السلام «**وفيه نوح وهود وإبراهيم**» وقال أبو شهبة: لأن المقصود الحج إلى محله، وبقصته المعروفة، وإن لم يكن ثم بناء. [بكرات: جمع بكرة، وهي الناقة الفتية القوية؛ وخطم: جمع خطام، وهو الزمام الذي تشد به الناقة، والأزر: جمع إزار، وهو ما يستر به أسفل الجسم من الوسط؛ والأردية: جمع رداء، وهو ما يوضع على الكتفين ويستر به النصف الأعلى. والنمار جمع نمرة، وهو الكساء المخطط].

عمل ابن الزبير رضي الله عنهما وغيره في عمارة الكعبة:

عندما قرر ابن الزبير تجديد الكعبة، باشر المسلمون نقضها حتى بلغوا بها الأرض، فأقاموا أعمدة من حولها وأرخوا عليها الستور، ثم باشروا في رفع بنائها، وزادوا عليها الأذرع الستة التي أنقصتها منه قريش، وزادوا في طولها إلى السماء عشرة أذرع، وجعلوا لها بابين من الشرق والغرب، أحدهما يدخل منه والآخر يخرج منه. وذلك استنادًا إلى قول الرسول ﷺ الذي رواه الشيخان: «**يا عائشة، لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم فأدخلت فيه ما أخرج منه وألزقته بالأرض وجعلت له بابًا شرقيًا وبابًا غربيًا فبلغت به أساس إبراهيم**»، أو في معنى هذا.

وذكر الأزرقي، أن إبراهيم ﷺ جعل طول بناء الكعبة في السماء تسعة أذرع، وطولها في الأرض اثنين وثلاثين ذراعًا، وعرضها في الأرض اثنين وعشرين ذراعًا، وكانت بغير سقف. وحكى السهيلي أن طولها في السماء كان تسع أذرع من عهد إسماعيل، فلما بنتها قريش قبل الإسلام، زادوا فيه تسع أذرع، فكانت ثمانية عشر ذراعًا،

ورفعوا بابها عن الأرض، فكان لا يُصعد إليها إلا في دَرَج أو سُلَّم، وقد ذكرنا أن أول من عمل لها غَلَقًا هو تُبَّع، ثم لما بناها ابن الزبير زاد فيها تسع أذرع، فكانت سبعًا وعشرين ذراعًا، وعلى ذلك هي الآن».

لم يكن للمسجد الحرام سور. وكانت تحيط به الدور من كل الجهات، وعندما رأى ابن الخطاب أن المسجد قد ضاق بالحجاج والزوار، اشترى الدور التي حوله من أهلها فوسَّعه وجعل له سورًا على قامة الرجل، وأناره [الأزرقي؛ السهيلي] وعندما رأى عثمان رضي الله عنه أن المسجد أيضًا قد ضاق بالحجاج والمعتمرين، اشترى دورًا أخرى فوسع بها الحرم [الأزرقي]، وكذلك فعل ابن الزبير [الأزرقي].

ولم يزل الخلفاء الأمراء من ذلك الزمان يتعهدون الحرم بالتوسعة [الأزرقي] إلى زماننا هذا الذي يشهد فيه أضخم توسعة على يد الحكومة السعودية، فجزاهم الله خيرًا.

وانظر في هذا بحثنا المشار إليه قبل صفحتين. [عمارة الكعبة...].

مقام إبراهيم عليه السلام:

المقام: هو الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم ﷺ لما ارتفع البناء عن قامته كما ذكرنا، وقد تركت قدماه أثرًا فيه، وظل هذا الأثر إلى أول الإسلام، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم، وفي هذا يقول أبو طالب:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافيًا غير ناعل

[البداية].

وقد روي أن المقام كان ملصقًا بحائط الكعبة، على ما كان عليه من قديم الزمان إلى أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأخَّره عن البيت قليلًا، توسعة على الطائفين والمصلين عند المقام، ووافق الصحابة رضي الله عنهم على عمل الفاروق [عبد الرزاق، صحيح؛ البيهقي، صحيح].

وقد سبق وأن وافق الله تعالى على قول عمر رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى»، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ﴾[البقرة:١٢٥] [البخاري، أحمد، صحيح].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن إبراهيم عليه السلام بنى أيضًا المسجد الأقصى، وقيل: إن يعقوب عليه السلام هو الذي أسسه. وقد كان بين البناءين أربعون عامًا، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم [متفق عليه].

أما الحديث الذي رواه النسائي [السنن، صحيح]، وفيه أن سليمان بن داود عليهما السلام هو الذي بنى المسجد الأقصى، فالمقصود بالبناء هنا هو التجديد كما ذكر السيوطي وابن القيم وابن حجر، واستعمال البناء بمعنى التجديد وارد في اللغة العربية، كما قال الدكتور أبو شهبة.

[٢] حالة العالم حين بعث محمد ﷺ

لقد عاشت البشرية في ظلام من الجاهلية في القرنين السادس والسابع الميلاديين، إذ سادت الوثنيات والخرافات والعصبيات والقبليات والطبقيات والمفاسد الاجتماعية والسياسية. وحرفت معظم الأفكار الإصلاحية السليمة، سواء التي جاء بها أنبياء الله تعالى المرسلون، أو الحكماء الذين استقامت فطرهم على الحق. وقد عبر الرسول ﷺ عن هذه الحقيقة في قوله: «**إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم جميعًا إلا بقايا من أهل الكتاب**» [مسلم].

وفي الصفحات القليلة التالية، نذكر باختصار، ما كانت عليه الجزيرة العربية في تلك الفترة، لبيان ضرورة رسالة النبي ﷺ وما تضمنته من أسس ومعايير، كانت وما زالت وستظل، عوامل رئيسة في بناء الحضارة الإنسانية.

١ - في الجزيرة العربية:

أولًا: الحالة السياسية:

أ - الملك باليمن:

إن من أقدم الشعوب التي عرفت باليمن من العرب العاربة قوم سبأ، الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم، ويبدأ ازدهار حضارتهم ونفوذ سلطانهم بأحد عشر قرنًا. وفي سنة ثلاثمائة الميلادية غلبت على ملكهم قبيلة حمير، ثم بدأت اليمن في دور الانحطاط، وأخذت القبائل القحطانية في الهجرة إلى البلاد المختلفة.

وتوالت عليهم الاضطرابات والحروب الأهلية في المئتين والسبعين سنة التي سبقت دخول الإسلام اليمن، مما أتاح للأجانب القضاء على استقلالهم. فدخلت الرومان عدن، وبمعونتهم احتلت الأحباش اليمن لأول مرة، سنة ٣٤٠م، مستغلين التنافس بين قبيلتي همدان وحمير، واستمر احتلالهم إلى سنة ٣٧٨م. ثم نالت اليمن استقلالها، ولكن سلط الله تعالى عليهم سيل العرم سنة ٤٥٠ أو ٤٥١م فهدم سد مأرب الذي جعله الله تعالى مصدر نعمة ورخاء لهم [تاريخ اليعقوبي]. وكل ذلك بسبب عتوهم وفسادهم وانحرافهم. وهذه سنة الله تعالى في ذلك.

وفي سنة ٥٢٣م قام ملكهم ذو نواس بحملة ضد المسيحيين لصرفهم عن دينهم، فلما أبوا، حفر لهم أخدودًا، وأوقد فيه نارًا، فقذفهم فيها، وهم الذين حكى الله تعالى خبرهم في الآيات: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾﴾ [البروج: ٤-٥]، وكان سببًا في تحريض الروم الأحباش ليحتلوا اليمن للمرة الثانية بقيادة أرياط سنة ٥٢٥م، وظل حاكمًا على اليمن إلى أن اغتاله أبرهة - أحد قواد جيشه - وحكم مكانه بعد أن نال رضى ملك الحبشة. وقام أبرهة بمحاولة هدم الكعبة بمكة، ولكن الله رده بقوته، كما حكى ذلك القرآن الكريم في سورة الفيل.

واستنجد اليمنيون بالفرس فأعانوهم على إجلاء الأحباش سنة ٥٧٥م، بقيادة معد يكرب بن سيف بن ذي يزن الحميري، وملكوه عليهم. وكان قد أبقى جمعًا من الحبشة لخدمته، فاغتالوه، وبموته انقطع الملك عن بيته، وولى كسرى عاملًا فارسيًا على صنعاء، وجعل اليمن ولاية فارسية. وكان آخر ولاتهم باذان، الذي اعتنق الإسلام، وبإسلامه انتهى نفوذ الفرس في بلاد اليمن [نفسه]، وكان إسلام باذان في جمادى الأولى سنة سبع من الهجرة - ٦٢٨م [ابن سعد].

ب - الملك بالحيرة:

حكمت الفرس العراق وما جاورها منذ أن جمع شملهم قوروش الكبير (٥٥٧-٥٢٩ق.م) ثم فرق شملهم الإسكندر المقدوني سنة ٣٢٦ق.م عندما هزم ملكهم دارا الأول، ودخلت البلاد في حكم الطوائف إلى سنة ٣٣٠م. وفي عهد هؤلاء الملوك هاجر القحطانيون وسكنوا جزءًا من ريف العراق، ثم لحقهم من هاجر من العدنانيين، فزاحموهم حتى سكنوا جزءًا من الجزيرة الفراتية.

وجمع أردشير الفارسي - مؤسس الدولة الساسانية منذ سنة ٢٢٦م - شمل الفرس، وسيطر على العرب المقيمين على تخوم مملكته، وكان ذلك سببًا في رحيل قضاعة إلى الشام، ودان له أهل الحيرة والأنبار، ولصعوبة حكم المناطق البعيدة رأى أن ينصب عليهم ملكًا منهم، اسمه جذيمة الوضاح، ويعينه بكتيبة من الفرس، ليقفوا جميعًا في وجه مطامع الروم وعرب الشام، الذين اصطنعهم الروم. واشتهر من ملوك الحيرة النعمان بن المنذر، وهو الذي خاض حربًا ضد ملك الفرس، وهزم جيش الفرس في موقعة ذي قار، بعد ميلاد الرسول ﷺ، وهو أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم، وقيل: إن الرسول ﷺ قال عنه: «**هذا أول يوم انتصف العرب فيه من العجم، وبي نصروا**» [الطبري: التاريخ].

جـ - الملك بالشام:

في العهد الذي ماجت فيه العرب بهجرات القبائل صارت بطون من قضاعة إلى مشارف الشام وسكنت بها، وكانوا من بني سليح بن حلوان، الذين منهم بنو ضجعم ابن سليح، المعروفون باسم الضجاعمة؛ فاصطنعهم الرومان ليمنعوا عرب البرية من العبث، وليكونوا عدة ضد الفرس، وولوا منهم ملكًا، ثم تعاقب الملك فيهم زمانًا إلى

أن غلبهم عليه الغساسنة. وظل الغساسنة في الملك من قِبَل الروم إلى أن كانت وقعة اليرموك سنة ١٣هـ-٦٣٤م، ودخل في الإسلام آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم، في عهد عمر رضي الله عنه [تاريخ اليعقوبي].

د - مكة:

إن مكة من بلدان الحجاز، ولم يقم بالحجاز كيان سياسي موحد يمكن أن يسمى بالدولة، وإنما قامت بها مدن، لكل منها نظامها السياسي الذي هو أقرب إلى المشيخة منه إلى نظام الملك. ومن أشهر المدن: مكة ويثرب والطائف.

تناولت فيما سبق طرفًا من تاريخ نشأة مكة، وذكرنا أصل سكانها، وهم جرهم، وقيل: كان قبلهم العماليق، الذين كانوا يسكنون خارجها، أي من حولها [الأزرقي].

لم تحافظ جرهم على حرمة الحرم بعد إسماعيل، فكثر في أيامهم البغي والفساد. واغتصب كثير منهم مال الكعبة الذي كان يهدى إليها. ويقال: إن ماء زمزم نضب في عهدهم، كما أن البئر نفسها زالت معالمها، وعندما تفرق بعض عرب اليمن بعد سيل العرم، هاجر ثعلبة بن عمرو بن عامر مع قومه إلى مكة، ولم تقبلهم جرهم، ودارت بينهم حرب انتهت بهزيمة جرهم.

وعندما مرض ثعلبة، رحل إلى الشام، وولى أمر مكة وحجابة الكعبة ابن أخيه ربيعة بن حارثة بن عمرو، وهو لحي، وعرف قومه بخزاعة. وقد انحاز إليهم بنو إسماعيل ابن إبراهيم. وكانوا قد اعتزلوا الحرب التي دارت بين جرهم وثعلبة [الأزرقي].

ظلت خزاعة تلي أمر البيت الحرام نحوًا من ثلاثمئة سنة، وقيل: خمسمئة سنة. وكانت قريش إذ ذاك متفرقة في بني كنانة حتى تزعمها قُصَيُّ بن كِلَاب ووحَّد بطونها، وخاض حربًا ضد خزاعة حول ولاية البيت. وأعانته قضاعة في حربة، وتدخلت قبائل العرب، وانتهت الحرب بالتحكيم الذي نتج عنه أحقية قصي بولاية الكعبة.

ومنذ ذلك اليوم ارتفعت مكانة قريش بين العرب [نفسه].

قام قصي بتقطيع مكة رِبَاعًا بين قومه، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة، وكانت له جميع الرئاسات من حِجَابة وسِقَاية وسِدَانة ولِوَاء. وبنى دارًا لإزاحة الظلمات وفصل الخصومات، سماها دار النَّدْوَة، وكان يرأس اجتماعاتها ويدير شؤونها. وفرض على قريش خرجًا سنويًا يؤدونه إليه لينفق منه على إطعام فقراء الحجاج.

وعندما كبر قصي فوض أمر هذه الوظائف والرئاسات إلى أكبر أبنائه عبد الدار، ولما مات عبد الدار وإخوته: عبد مَنَاف وعبد شَمس، وعبد العُزَّى، اختلف أبناؤهم في هذه الرئاسات، وافترقوا إلى فرقتين، ففرقة بايعت بني عبد الدار، وفرقة بايعت بني عبد مناف، ووضع حلف بني عبد مناف أيديهم عند الحلف في جَفْنَةٍ فيها طيب، ثم لما قاموا مسحوا أيديهم بأركان الكعبة، فسموا حلف المُطَيَّبين.

أما بنو عبد الدار ومن حالفهم. فقد أخرجوا جَفْنَةً مملوءة دمًا، وفعلوا ما فعله بنو عبد مناف عند الكعبة، وسموا الأحلاف.

ثم أخيرًا اصطلح الفريقان على أن تكون الرِّفَادَة والسقاية لبني عبد مناف، وأن تستقر الحجابة واللواء والندوة في بني عبد الدار [ابن إسحاق] وقسمت الرئاسات التي نالها بنو عبد مناف بين هاشم وأخيه عبد شمس، فكانت السقاية والرفادة لهاشم، والقيادة لعبد شمس [الأزرقي].

وعندما علت مكانة هاشم بين قومه حسده ابن أخيه أمية بن عبد شمس، وحاول أن ينافسه في إطعام الحجاج فعجز، فشمت به بعض قومه فزاد حسده وحقده على عمه.

وولي السقاية والرِّفَادَة المطلب بعد وفاة أخيه هاشم، ثم عندما مات المطلب خلفه ابن أخيه عبد المطلب بن هاشم، ثم عندما مات خلفه ابنه العباس بن عبد المطلب، وقد أبقاهما الرسول ﷺ في يده بعد فتح مكة.

أما بنو عبد الدار فقد توارثوا الحجابة واللواء ورئاسة دار الندوة. وقد أبقى الرسول ﷺ الحجابة بأيديهم عندما فتح مكة ودفع بمفتاح الكعبة إلى عثمان بن طلحة، وهي فيهم إلى اليوم، وقيل: إن الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[النساء:٥٨]، قد نزلت بهذا الخصوص [تفسير الطبري]، ولم يستبعد الطبري ذلك، وساق أقوالًا أخرى في ذلك.

هـ - يثرب:

كان أول من سكنها العمالقة، ثم تغلبت عليهم بعض القبائل اليهودية، فأقاموا بها، خاصة في القرنين الأول والثاني الميلاديين، إثر الحروب التي شنها الرومان ضد اليهودية بسورية، فتفرقوا في البلاد، فلجأت قبائلهم وعلى رأسهم بنو النضير وبنو قريظة إلى يثرب. وأقاموا بها حتى نزح إليهم من بلاد اليمن قبائل الأوس والخزرج عندما تهدم سد مأرب [المقريزي: إمتاع الأسماع].

عاش اليهود والأوس والخزرج في وئام فترة من الزمان، وتحالفوا ليأمن بعضهم بعضًا، وعندما قويت شوكة الأوس والخزرج تنمَّر اليهود عليهم ونقضوا الحلف الذي بينهم، فاستنجد العرب ببني عمومتهم الغساسنة، فأنجدوهم أنفة من تسلط اليهود عليهم [صبح الأعشى].

وكذلك عاش الأوس والخزرج في وئام في بداية أمرهم، ثم وقعت بينهما حروب طويلة، كان النصر في أغلب الأحيان للخزرج، ولهذا حاولت الأوس محالفة قريش

ضد الخزرج، فلم تفلح، فلجؤوا إلى الحلف مع بني قريظة وبني النضير. وسمعت الخزرج بهذا فأرسلت تستوضح الموقف، فأفادتهم يهود بأنها لا ترغب في الحرب، فأرادت الخزرج أن تتأكد من هذا، فطلبت منهم أربعين غلامًا، ليتخذوهم رهائن لديهم، وعندما استجابوا لهم، خيروهم بين الجلاء عن يثرب أو قتل الغلمان، فآثروا الخروج من ديارهم، غير أن كعب بن أسد القرظي أقنعهم بالبقاء والتضحية بالرهائن، فقتل الخزرج الغلمان، فغضب يهود وجاهروا بحلفهم مع الأوس، ووقفوا معهم في موقعة بُعَاث، فانتصر الأوس، بعد أن أوقعوا في الخزرج مقتلة عظيمة، ثم تصالح الفريقان، واتفقا على إقامة حكومة تعمل على استقرار الأمور بيثرب، برئاسة عبد الله ابن أُبَيّ بن سَلُول الخزرجي. [الوفا]، وبينما كانوا يستعدون لذلك قدم الرسول ﷺ المدينة مهاجرًا، فدان الجميع لسلطان الإسلام. ولم يجد ابن أبي بدًا من الدخول في الإسلام ظاهرًا بعد موقعة بدر، ودلت مواقفه بعد ذلك على نفاقه كما سيأتي بيانه. وهو ممن اتفق على نفاقه أهل الحديث والتفسير والمغازي والسير.

أما زعيم الأوس: أبو عامر بن صيفي بن النعمان، والد أبي حنظلة الغسيل، فقد أبى إلا الكفر فخرج إلى مكة، ثم إلى الطائف، ثم إلى الروم بالشام، محاولًا في كل أطوار حياته القضاء على الإسلام، وكان قد ترهب في الجاهلية، فسموه الراهب، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تقولوا الراهب، ولكن قولوا الفاسق**» [ابن إسحاق]. وله قصة في أحداث غزوة أحد، سيأتي ذكرها في مكانها.

و- الطائف:

كانت الطائف تعرف باسم (وَجّ)، نسبة إلى وَجِّ بن عبد الحي، أحد العمالقة الذين سكنوها. رحلت إليها قبيلة هوازن من وادي القُرَى، وتزوج زعيمها قسب بن منبه

ابن بكر بن هوازن بابنة زعيم وج عـامر العـدواني، واشـتهر قسـب باسـم ثقيـف فـيما بعد...، وعندما تكاثروا بنوا سورًا ليكون حصنًا، وأطلقوا عليه الطائف، لإطافته بهـم، ومن ثم عرفت هذه المدينة بالطائف بدلًا من وج. [معجم ما استعجم؛ معجم البلدان].

وعندما ظهر الإسلام كانت ثقيف مقسمة إلى فرقتين: الفرقة الأولى: هم بنو مالـك والثانية الأحلاف. وكانت بينهم شحناء أدت إلى حرب بينهما، انتصـر فيهـا الأحـلاف وأخرجوا بني مالـك إلى واد وراء الطـائف. ثـم رأى بنـو مالـك أن يعـززوا مـوقفهم العسكري بالتحالف مع بعض القبائل، فحالفوا دوسًا وخثعمًا وغيرهما على الأحلاف. ولكن لم تقع بينهم بعد ذلك حروب ذات بال [الكامل في التاريخ].

ثانيًا: الحالة الدينية عند العرب في الجزيرة العربية:

استمرت خزاعة على ولاية الكعبة نحوًا من ثلاثمئـة سـنة، وقيـل: خمسـمئة سـنة. وكانوا قوم سوء في ولايتهم، وذلك لأنه كان في زمانهم أول عبـادة الأوثـان بالحجـاز، بسبب رئيسهم عمرو بن لحي. [يأتي ذكره]، الذي زار الشام ووجد العماليق بمؤاب مـن أرض البلقاء (مكان بالأردن الآن) يعبدون الأصنام، وقالوا لـه إنهـم يعبـدونها لأنهـم يستمطرونها فتمطرهم ويستنصرونها فتنصرهم، فطلب صنمًا فأعطوه صنم هُبَل، فجـاء به مكة ونصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه، لأنه كان سيدًا مطاعًا فـيهم. وعنـدما بـدأ بنو إسماعيل يتفرقون في البلاد أخذوا يحملون معهم من حجارة الحرم تعظيـمًا للحـرم، فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالبيـت، حتـى سـلخ ذلـك بهـم إلى أن كـانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم، وخلفت الخلوف ونسوا مـا كـانوا عليـه من دين إبراهيم. [ابن هشام].

وكثرت فيهم الأصنام، فكان (وَدٌّ) لبني كَلْب بن وَبْرَةَ بدُوْمَـةِ الجَنْـدَل، و(سُـوَاع) لبني هُذَيل بمكان تسمى رُهَاط، على ثلاث ليال من مكة، و(يَغُـوْث) لبنـي أَنْعُـم مـن

طيء ولأهل جُرش من مَذْحِج اليمنية، وكان منصوبًا بجرَش، و(يَعُوْق) لبني خَيْوَانَ الهمدانيين، و(نَسْرَ) لقبيلة ذي الكُلَاع الحِمْيَرِية. [ابن إسحاق].

وهذه الأصنام هي التي عبدها قوم نوح، وحكى خبرها القرآن الكريم، قائلًا: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾[نوح: ٢٣-٢٤]، فعندما فارق ولد إسماعيل وغيرهم دين إبراهيم ﷺ عبدوا هذه الأصنام. [انظر البخاري].

وكان لخولان صنم يدعى (عَمُّ أَنَس) وقيل: (عُمْيَانِسُ)، يقسمون له من أنعامهم وحروثهم قسمًا بينه وبين الله - فيما يزعمون - وفيهم أنزل الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا﴾[الأنعام:١٣٦]. وكان لبني مِلْكَانَ بن كِنَانَة صنم يقال له: (سَعْد). وكان لدَوْسٍ صنم لعمرو بن حُمَمَة الدَّوْسِيُّ. وكان لقريش مع هبل صنما: (إِسَاف) و(نائلة)، على موضع زمزم، ينحرون عندهما، قالت عائشة رضي الله عنها: «ما زلنا نسمع أن إسافًا ونائلة كانا رجلًا وامرأة من جرهم أحدثا في الكعبة فمسخهما الله عز وجل حجرين» [ابن إسحاق، حسن لذاته].

واتخذ أهل كل دار في دارهم صنمًا يعبدونه، وكان آخر ما يفعلونه عند الشروع في السفر وأول ما يفعلونه حين العودة منه، التمسح بالصنم، فلما بعث الله محمدًا ﷺ بالتوحيد، عابوا عليه ذلك وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾[ص:٥].

وفي الصحيح عن أبي الرجاء العطاردي، قال: «كنا في الجاهلية إذا لم نجد حجرًا جمعنا جُثْوَةً من التراب وجئنا بالشاة فحلبناها عليه، ثم طفنا به» [البخاري].

وروى ابن كثير [في البداية] عدة أحاديث صحيحة تدل على ما ابتدعه عمرو بن لحي في الدين واتبعه العرب في ذلك، فضلُّوا ضلالًا بعيدًا؛ من ذلك رواية الشيخين: قال رسول الله ﷺ: «**رأيت عمرو بن عامر الخزاعي** [أي عمرو بن لحي] **يجر قُصْبَهُ** [أي أمعاءه]

في النار، كان أول من سيَّب السوائب...»، ورواية ابن إسحاق [السيرة، حسن] الأكثر تفصيلًا وبإسناد صحيح، ولفظها: «... **إنه كان أول من غير دين إسماعيل، فنصب الأوثان، وبحر البحيرة، وسيَّب السائبة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي**». وقد أنكر الله تعالى عليهم ذلك في أكثر من آية، فقد قال عز وجل: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾[النحل:١١٦].

قال ابن عباس [كما في تفسير الطبري]: «إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام...» ففيها خلاصة عبادة العرب وما نتج عن ذلك من ممارسات اجتماعية ضارة.

ولم يبق من دين إبراهيم إلا القليل، مثل تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة، والوقوف بعرفات والمزدلفة وإهداء البدن مع إدخالهم في هذا ما ليس منه. فكانت كنانة وقريش إذا أهلوا بالحج أو العمرة قالوا: «لبيك اللهم لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك»، فيوحدونه بالتلبية، ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده» [ابن إسحاق]. وكانوا يطوفون بالبيت عراة وهم يصرخون.

واتخذت العرب طواغيت مع الكعبة، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، ويهدى لها، ويطاف بها، وينحر عندها. فكانت لقريش وبني كنانة (العُزَّى) بنَخْلَة، وكان سدنتها وحجابها من بني شَيْبَانَ، من سُلَيْمٍ، حلفاء بني هاشم، وكانت (اللّاتُ) لثقيف بالطائف. وكان سدنتها وحجابها من بني مُعَتِّبٍ، من ثقيف. وكانت (مَنَاةُ) للأوس والخزرج ومن دان بدينهم، بناحية الْمُشَلَّل بقُدَيْدٍ. وهذه الطواغيت هي التي أشار إليها القرآن الكريم في الآية: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾[النجم: ١٩-٢٠]. وكان (ذو الخَلَصَة) لدَوْسٍ وخَثْعَم وبَجِيْلَةَ ومن كان

ببلادهم من العرب بِتَبَالَةَ، وكان يقال له: (الكعبة اليمانية)، ويُقَالُ لبيت مكة: (الكعبة الشامية). وكان (فَلْسٌ) لطيء ومن يليها بَجَبَلَيْ طيء، يعني أَجَا وسَلْمَى. وكان (رِئَام) بيتًا لحمير وأهل اليمن. وكانت (رُضَاءُ) بيتًا لبني ربيعة بن كعب. وكان (ذو الكَعَبَات) لِبَكْرٍ وتغلب ابني وائل وإياد، بَسِنْدَادَ [يأتي ذكرها]. وكان للعرب أصنام أخرى غير التي ذكرنا، حفلت بذكرها المصادر المختلفة. [تاريخ اليعقوبي والأصنام لابن الكلبي].

وهناك روايات طريفة عن موقف بعض العرب من أصنامهم. من ذلك ما روي من أن السائب بن عبد الله كان له حجر نحته بيده ليعبده، فيجيء باللبن الخاثر الذي ينفسه على نفسه فيصبه عليه، فيجيء الكلب فيلحسه، ثم يَشْغر [يرفع إحدى رجليه] فيبول... الأثر. وما يروى من أن بني حنيفة اتخذوا في الجاهلية إلهًا من حيس [الأقط - اللبن المجفف - يخلط بالتمر والسمن]، فعبدوه دهرًا طويلًا، ثم أصابتهم مجاعة، فأكلوه، فقال رجل من بني تميم يعيرهم بذلك:

أكلت ربها حنيفة من جو ... ع قديم بها ومن إعواز

وقال فيهم آخر:

أكلت حنيفة ربها ... زمن التقحم والمجاعة

لم يحذروا من ربهم ... سوء العواقب والتباعة

[المعارف]

وهناك قصة الرجل الذي قال شعرًا في صنمهم عندما رأى ثعلبين يبولان عليه [ابن سعد]، وقصة عمر بن الخطاب الذي أكل صنمه من العجوة عندما جاع... إلخ، وهي قصص وإن لم يثبت بعضها حديثيًا إلا أنها تصور الحالة التي كان عليها العرب في جاهليتهم.

ظهرت في بلاد العرب إلى جانب عبادة الأصنام، عبادة النجوم والكواكب، خاصة في حران والبحرين والبادية. ويقال: إنه كان بمكة رجل يدعى (أبو كبشة) عبد نجمًا

اسمه (الشعرى)، ودعا قريشًا إلى عبادته. وانتشرت هذه العبادة بين بعض قبائل لخم وخزاعة وقريش. وعندما دعا الرسول ﷺ إلى عبادة الله وحده سموه ابن أبي كبشة لمخالفته إياهم في العبادة كما خالفهم في عبادتهم من قبله ابن أبي كبشة [بلوغ الأرب].

وعبدت الشمس في بلاد اليمن، وفي ذلك قال تعالى في قصة ملكة سبأ: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾[النمل:٢٣-٢٤].

وتسربت بعض فرق المجوسية الفارسية إلى بلاد العرب. وفي ذلك يقول ابن قتيبة [في المعارف]: (وكانت المجوسية في تميم، منهم زرارة وحاجب بن زرارة... وكانت الزندقة في قريش، أخذوها من الحيرة). وكان الأقرع بن حابس وأبو سود - جد وكيع ابن حسان - ممن دان بالمجوسية [نفسه]، وتسربت إلى هجر [البخاري] من البحرين. وكانوا يقولون: إن قتل عدوهم على أرضهم ينجسها عليهم [الحاكم، صحيح].

ودخلت اليهودية بلاد العرب بصفة عامة والمدينة وخيبر ووادي القرى وفدك وتيماء [يأتي خبرهم] بصفة خاصة عندما نزح إليها اليهود. ووصلت إلى اليمن، ودان بها ذو نواس الملك الحميري، وحاول حمل النصارى على اعتناقها كما ذكرنا سابقًا. وانتشرت في بني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة، وربما وصلتهم من يهود يثرب وخيبر [بلوغ الأرب].

وتسربت المسيحية إلى الغساسنة والمناذرة، ومن أشهر الأديرة في الحيرة: (دير هند الأقدم، ودير اللج، ودير حارة مريم) (معجم ما استعجم).وتسربت إلى جنوبي الجزيرة العربية، وأنشئت كنيسة بظفار وأخرى بعدن [بلوغ الأرب]، ولنصارى نجران قصة مع الرسول ﷺ في مكة وأخرى بالمدينة. سيأتي ذكرها.

ودانت بعض قبائل قريش بالمسيحية، منها: بنو أسد بن عبد العزى. كما اعتنقها بنو امرئ القيس بن تميم، وبنو تغلب بن ربيعة، وبعض قبائل قضاعة، وكأنهم تلقوا ذلك عن الروم [اليعقوبي]. وممن تنصر بنصرانية محرفة من العرب: عدي بن حاتم الطائي [البخاري.أحمد، حسن].

لم تنتشر اليهودية والنصرانية انتشارًا واسعًا في بلاد العرب كما هو واضح من تاريخهما وسيرتهما وسط القبائل والأفراد. ولم تندثر تمامًا ديانة إبراهيم عليه السلام بل تمسك بها نفر قليل جدًا وسط دياجير ظلام الجاهلية وعبادة الأوثان. وعرف هؤلاء النفر بالحنيفيين أو الحنفاء، فقد كانوا يؤمنون بالله تعالى ويوحدونه، توحيد ألوهية وتوحيد ربوبية، وينتظرون النبوة [بلوغ الأرب].

وكان من مشاهير هؤلاء الحنفاء: قس بن ساعدة الإيادي، وزيد بن عمرو بن نُفَيل، وأُمَيَّة بن أبي الصَّلْت، وأبو قيس بن أبي أنس، وخالد بن سنان، والنابغة الذبياني، وزُهَير بن أبي سُلْمَى، وكعب بن لؤي بن غالب - أحد أجداد النبي ﷺ [البداية].

وقد سموا بالحنفاء نسبة إلى ما وصف به دين إبراهيم في القرآن الكريم ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾[الأنعام:٧٩]، ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾[آل عمران:٦٧]، ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ۗ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾[آل عمران:٩٥].

ولنقف وقفة قصيرة مع أشهر هؤلاء الحنفاء، لإلقاء بعض الضوء على سيرهم ومعتقداتهم:

١- محمد ﷺ:

من المعلوم بداهة أن الرسول ﷺ كان على رأس أشهر الحنفاء والشاهد سيرته.

٢- زيد بن عمرو بن نفيل:

روى ابن إسحاق [كما في البداية، بسند حسن]، بإسناده إلى أسماء بنت أبي بكر، قالت: «لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسندًا ظهره إلى الكعبة، يقول: «يا معشر قريش، والذي نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري». ثم يقول: «اللهم إني لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به، ولكني لا أعلم». ثم يسجد على راحلته. وكان يصلي إلى الكعبة ويقول: «إلهي إله إبراهيم، وديني دين إبراهيم».

وكان يحيي الموؤودة، ويقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: «لا تقتلها، أنا أكفيك مؤونتها، فيأخذها»، فإذا ترعرعت قال لأبيها: «إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤونتها» [صحيح البخاري].

وروى البخاري عن ابن عمر أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن دين صحيح يتبعه، فلقي عالمًا من اليهود فسأله عن دينهم، لعله يتبعه، فقال له اليهودي: (إنك لا تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله). قال زيد: «وما أفر إلا من غضب الله تعالى ولا أحمل من غضب الله شيئًا ولا أستطيع، فهل تدلني على غيره؟» قال: (ما أعلمه إلا أن تكون حنيفًا). قال زيد: «وما الحنيف؟» قال: (دين إبراهيم عليه السلام لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا ولا يعبد إلا الله). فخرج زيد، فلقي عالمًا نصرانيًا، فدار بينهما مثل ما دار بينه وبين اليهودي. فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم، خرج، فلما برز رفع يديه فقال: «اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم».

وكان زيد يرفض الأكل من ذبائح قريش، ويقول: «إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه»، ويعيب على قريش ذبائحهم، ويقول: «الشاة خلقها الله، وأنزل لها من السماء الماء، وأنبت لها من الأرض، ثم تذبحونها على غير اسم الله؟»، إنكارًا لذلك وإعظامًا له [البخاري].

ورويت أحاديث أخرى من طرق ضعيفة، لكنها تعتضد وتتقوى بعضها ببعض وبأحاديث البخاري، فترتفع إلى درجة الحسن لغيره، دلت على أن زيدًا كان يبحث عن الدين الصحيح، وأخيرًا استقر على دين إبراهيم عليه السلام [البداية؛ ابن سعد].

ولهذا قال عنه الرسول ﷺ: «**يحشر ذاك أمة وحده بيني وبين عيسى بن مريم**» [البداية؛ جيد حسن]. وقال: «**دخلت الجنة فرأيت لزيد بن عمرو دوحتين**» [البداية، جيد].

لقد لقي زيد بن نفيل الرسول ﷺ ومات قبل أن يبعث الرسول ﷺ [البخاري].

٣- ورقة بن نوفل:

روي أنه خرج مع زيد بن نفيل يبحث عن دين صحيح يتبعه، وبعد البحث تنصَّر ورقة، ولم يرتض زيد سوى دين إبراهيم عليه السلام [الطيالسي، يتقوى].

قال النبي ﷺ يومًا لخديجة رضي الله عنها إنه يرى ضوءًا ويخشى أن يكون به جنن، فطمأنته، ثم أتت به ورقة، وذكرت له ما يقع له، فقال ورقة: «إن يك صادقًا فإن هذا ناموس مثل ناموس موسى، فإن بعث وأنا حي فسأعززه وأنصره وأؤمن به» [أحمد، مرسل حسن].

وسيأتي خبره والآثار الواردة في إسلامه عند الكلام عن بداية نزول الوحي على الرسول ﷺ والمسلمين الأوائل، وله أبيات شعرية رائعة في التوحيد والبعث [ابن إسحاق في السيرة].

٤- قُسُّ بن سَاعِدة الإيادي:

روي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه وغيره أنه عندما قدم وفد إياد على الرسول ﷺ سألهم عن قس بن ساعدة، فذكروا له أنه هلك. فقال النبي ﷺ: «**لقد شهدته يومًا بعكاظ على جمل أحمر يتكلم بكلام مُعْجِبٍ مُؤنِقٍ لا أجدني أحفظه**». فذكر أحد أفراد الوفد أنه يحفظه، فهو: «**يا معشر الناس اجتمعوا، فكل من مات فات، وكل شيءٍ آت**

آت، ليلٌ دَاج وسماءٌ ذاتُ أبراج، وبحرٌ عَجَاجٌ، نُجُوم تَزْهَرُ، وجبالٌ مَرْسِيَّةٌ، وأنهارٌ مَجْرِيَّة، إن في السماء لَخَبَرًا، ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أَرَضُوا بالإقامة فأقاموا، أم تُرِكُوا فناموا، أقسم قُسٌّ بالله قَسَمًا لا ريب فيه، إن لله دينًا هو أرْضَى من دينكم هذا» وأنشد في ذلك شعرًا.

وروى ابن عباس أنه عندما قدم وفد عبد القيس على النبي ﷺ سألهم عن قس، فقالوا: «هلك». قال: «...» فذكر كلامًا بنحو ما جاء في رواية ابن الصامت [البداية].

وروى ابن كثير [البداية، يعتضد] والبيهقي [الدلائل] أحاديث أخرى بهذا المعنى في قصة قس وتعبده بالحنيفية وأقواله، وأشعاره في ذلك، دلت على أن لقصته أصلًا تاريخيًا، كما ذكر ابن كثير والبيهقي.

٥- أمَيّة بن أبي الصّلت:

هو الذي قال فيه الرسول ﷺ: «**كاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم**» [متفق عليه]. وفي رواية: «**فلقد كاد أن يسلم في شعره**» [مسلم]. ويقال إنه ممن دخل في النصرانية وأكثر في شعره من ذكر التوحيد والبعث يوم القيامة [ابن إسحاق، الفتح]، فقد كان من فحول الشعراء [ابن إسحاق، مسلم]، عاش إلى زمان البعثة ولم يؤمن تكبرًا على أن يكون تابعًا للرسول ﷺ [الطبري: التفسير]، وفيه نزل قول الله تعالى: ﴿**وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا**﴾[الأعراف:١٧٥] [ابن مردويه، بسند قوي كما في الفتح].

قيل إنه مات سنة تسع، وقيل سنة اثنتين [ابن حجر]، وله شعر في رثاء قتلى قريش يوم بدر الكبرى [ابن إسحاق].

٦- لبيد بن ربيعة العامري ثم الكلابي ثم الجعفري:

كان من فحول شعراء الجاهلية، ومن شعراء المعلقات. قال الرسول ﷺ عنه: «**أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل**» [متفق عليه].

وله قصة مع عثمان بن مظعون، وسنذكرها عند الكلام عن أساليب حرب المشركين للدعوة - الأسلوب العاشر.

وقد أسلم لبيد، ومات في خلافة عثمان رضي الله عنه، بعد أن عاش مائة وخمسين عامًا، وقيل أكثر [الفتح].

وممن ذكر من مشاهير الحنفاء غير هؤلاء: أرباب بن رئاب، والشاعر سويد بن عامر المصطلقي، وأسعد أبو كرب الحميري، ووكيع بن سلمة بن زهير الإيادي، وعمير بن حيذب الجهني، وعدي بن زيد العبادي - تنصر -، وأبو قيس صرة ابن أبي أنس البخاري، وسيف بن ذي يزن الحميري، وعامر بن الظرب العدواني، والشاعر عبد الطانجة بن ثعلب بن وبرة بن قضاعة، وعلاف بن شهاب التميمي، والملتمس ابن أمية الكناني، والشاعر زهير بن أبي سلمى، وخالد بن سنان بن غيث العبسي، وعبد الله القضاعي، وعبيد بن الأبرص الأسدي، وكعب بن لؤي بن غالب القرشي أحد أجداد النبي ﷺ [بلوغ الأرب]، وعثمان بن الحويرث، الذي رحل في طلب الدين، فاستقر به المقام عند قيصر، فتنصر وأقام عنده بأحسن مقام [ابن إسحاق في السيرة]، وعمرو ابن عبسة السلمي، الذي أكرمه الله بالإسلام [تاريخ الطبري، صحيح]، وأكثم ابن صيفي بن رباح [البلوغ]، وعبد المطلب - جد النبي ﷺ [مروج الذهب، الملل والنحل]-.

ثالثا: الحياة الاجتماعية عند العرب في الجزيرة العربية:

إن الحياة الاجتماعية في أي مجتمع من المجتمعات لا تكاد تنفصل عن الحياة الدينية والاقتصادية، ولأن الوثنية التي سادت بين العرب كانت ضد الفطرة والمنطق، فقد نتج عن ذلك مظاهر اجتماعية ضد الفطرة والمنطق.

ومن بين تلك المظاهر: الانحطاط الأخلاقي، الذي تمثل في ممارسة كثير من الرذائل، مثل شرب الخمر ولعب الميسر، والزواج بغير عدد، وقتل بعضهم الأولاد

خشية الفقر أو بسبب الفقر، وقتل بعضهم الإناث بالذات خوف العار، وإثارة الحروب لأتفه الأسباب، وأخذ الثأر، وقد حكى عنهم الله تعالى كل هذه الرذائل في القرآن الكريم، وعلى لسان رسوله، وعابها عليهم، وظل الرسول ﷺ يحاربها طوال حياته كما هو معروف، ومثال ذلك: ما قاله ابن عباس. إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومئة من سورة الأنعام. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾[التكوير:٨-٩]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝١٧﴾[الزخرف:١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩﴾[النحل: ٥٨-٥٩]، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠﴾[المائدة:٩٠]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ﴾[الأنعام:١٥١]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ﴾[الإسراء:٣١].

وسادت في بعض أوساط غير الأشراف أنواع من الأنكحة التي لا تختلف عن الدعارة. فقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فكان منها نكاح الناس اليوم... ونكاح الاستبضاع، وهو أن يصيب الرجل الأجنبي امرأة غيره في طهر لم يجامعها فيه زوجها ولا يقربها زوجها حتى يتبين حملها، ونكاح الرهط، وهو أن يجتمع الرهط دون العشرة، فيصيب كل منهم المرأة، فعندما تضع حملها ترسل إليهم فيجتمعون عندها، فتلحق المولود بمن تريد منهم، ونكاح رابع، وهو أن يجتمع الرجال الكثير على المرأة التي تنصب راية في بيتها، فإذا حملت فوضعت حملها جُمعوا لها، ودعوا لهم القَافَة (جمع قائف، وهو الذي يعرف شبه الولد بالآثار الخفية)، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرونه أكثر شَبَهًا به، وقد أبطل الإسلام

كل هذه الأنكحة ما عدا نكاح الناس اليوم»، ولم يكن يحس بعضهم بعار هذه الممارسات، فقد روى الشيخان أن رجلًا قام فقال: يا رسول الله: إن فلانًا ابني، عاهرت بأمه في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «**لا دعوة في الإسلام. ذهب أمر الجاهلية. الولد للفراش وللعاهر الحجر**».

وسيأتي ذكر قصة اختصام سعد بن أبي وقاص وعبد بن زمعة في ابن أمة زمعة - وهو عبد الرحمن بن زمعة - في فقه عمرة القضاء.

وكانوا يجمعون بين الأختين، ويتزوجون بزوجات آبائهم إذا طلقت أو ماتوا عنهن وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾[النساء:٢٣]، ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾[النساء:٢٢].

ولم يكن للطلاق عدد معين [أبو داود، صحيح]، فحدده الإسلام بثلاث، كما في قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾[البقرة:٢٢٩].

وعلى الرغم من وجود هذه الأمراض الخلقية عند عرب الجاهلية إلا أن هناك جوانب مضيئة في حياتهم السياسية والاجتماعية لا يمكن إنكارها، ولعلها كانت سببًا في اختيار الله تعالى لهم لحمل رسالته إلى العالمين، ومثال ذلك أن جاهليتهم لم تكن مركبة تقوم على فلسفة معقدة يصعب إزالتها، كما كان الحال في المجتمعات الأخرى المجاورة، وكانوا أصحاب عزيمة قوية يصدقون عندما يؤمنون، وقد وصفهم القرآن بهذا في قوله تعالى: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣)﴾[الأحزاب:٢٣]، وكان كثير منهم يتمسك بالفضائل ويقدِّرون من يتصف بمكارم الأخلاق، كما كان موقفهم من الرسول ﷺ في هذا الجانب بالذات، وهو موقف عبر عنه أبو سفيان في حديثه المشهور لهرقل، كما سيأتي.

وكانوا من أصفى الناس ذهنًا، وتحكى في ذلك الحقائق والغرائب، فقد ذكر ابن عبد البر [جامع بيان العلم]، أن ابن شهاب الزهري كان يقول: (إني لأمر بالبقيع فأسد آذاني مخافة أن يدخل فيها شيء من الخنا (الكلام الفاحش) فوالله ما دخل أذني شيء قط فنسيته).

وقال ابن عبد البر [نفسه] أيضًا: (كان أحدهم يحفظ أشعار بعض في سمعه واحدة. وقد جاء أن ابن عباس رضي الله عنه حفظ قصيدة عمر بن أبي ربيعة:

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجر

في سمعة واحدة على ما ذكروا، وليس أحد اليوم على هذا، ولولا الكتاب لضاع كثير من العلم...).

وليس بعد هذا يستغرب عدد الأحاديث التي رواها ابن عباس وأبو هريرة، وابن مسعود، وعائشة رضي الله عنهم. فقد روى أبو هريرة خمسة آلاف حديث وثلاثمئة وأربعة وسبعين حديثًا، وروى عبد الله بن عمر ألفي حديث وستمئة وثلاثين حديثًا... إلخ [ابن حزم: جوامع السيرة].

وكانوا يحبون الحرية، ولم يعرفوا الخضوع إلا لذوي الأسنان منهم، ممن تتوافر فيهم شروط النجدة، والبسالة، والرجولة، والصبر، والحلم، والأناة، وكل خصال الخير.

ومع عبادتهم الأوثان، فقد كانوا لا ينكرون وجود الله تعالى، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[العنكبوت:٦١]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[العنكبوت:٦٣].

ويعرف هذا بتوحيد الربوبية، وهو الاعتقاد الجازم بأن الله سبحانه وتعالى رب كل شيء وخالقه ومليكه.

وكانوا أصحاب لغة واحدة، ذات سحر وبيان، عبرت عن الإسلام أحسن تعبير.

٢- في خارج الجزيرة العربية:

أ - جوانب من الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية في ظل اليهودية:

أولًا: جوانب من الحياة الدينية:

لقد تعرضت الديانتان السماويتان اليهودية والنصرانية إلى تحريف وتبديل، ومن ثم فقدتا الروح، ولم تَعُودا تمثلان دورهما الأساس في إصلاح الناس الذين جاءتا من أجلهم.

فاليهودية، بالإضافة إلى التحريف الذي حدث في أصولها، كانت ديانة أراد الله أن تكون لبني إسرائيل خاصة. غير أنها أصيبت في عقيدة التوحيد التي فضل الله بها بني إسرائيل على أهل زمانهم، إذ اقتبس اليهود كثيرًا من العقائد والتقاليد الوثنية الجاهلية للأمم التي جاوروها أو سيطروا عليها أو عاشوا وسطها. وقد اعترف بهذه الحقيقة مؤرخو اليهود المنصفون. ومثال ذلك ما جاء في دائرة المعارف اليهودية ما معناه:

(إن سخط الأنبياء وغضبهم على عبادة الأوثان تدل على أن عبادة الأوثان والآلهة كانت قد تسربت إلى نفوس الإسرائيليين، ولم تستأصل شأفتها إلى أيام رجوعهم من الجلاء والنفي في بابل، وقد قبلوا معتقدات خرافية ومشركة، وإن التلمود أيضًا يشهد بأن الوثنية كانت فيها جاذبية خاصة اليهود...).

هذا بالإضافة إلى أن توراتهم وتلمودهم قد طفحا بأوصاف ونعوت لا تليق بذات الله ووحيه وأنبيائه ورسالاتهم.

فتراهم في توراتهم المحرفة وعهدهم القديم - مثلًا - يذكرون أن الله قد تعب في اليوم السادس وهو يخلق الكون، واستراح في اليوم السابع، وبارك اليوم السابع وقدسه لأنه استراح فيه من جميع أعماله. ولذلك كان تحريم اليهود للعمل يوم السبت.

وجاء في عهدهم القديم في قصة آدم وزوجه حواء عليهما السلام: (وسمعا صوت الرب الإله ماشيًا في الجنة، عند هبوب رياح النهار، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب

الإله في وسط شجر الجنة، فنادى الرب الإله آدم وقال له: أين أنت؟ فقال: سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت. فقال: من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها؟..).

وهكذا يصورون الله وكأنه بشر لا يعرف ما يحدث في حديقة منزله.

وقد أعقب هذا قولهم: إن آدم عندما أكل من شجرة المعرفة ارتفع بهذا العصيان إلى مراتب الآلهة، وأدرك الخير والشر، على الرغم من أن الرب عندما خلقه كان حريصًا على بقائه جاهلًا بهما. وعندما خشي الرب على ازدياد تمرد آدم واستفحال أمره، أخرجه وزوجه من الجنة حتى لا تمتد أيديهما إلى شجرة الحياة فيكتب لهما الخلود. ولم ترضه أيضًا سيرة آدم وأبنائه في الأرض، لأنه فوجئ بهم يملؤونها بالشرور والآثام، فحزن وتأسف على خلقهم.

والله في كتابهم المقدس يندم على إغراق الأرض بالطوفان. ويقبل ضيافة نبيه إبراهيم عليه السلام ويأتي إلى منزله بصحبة اثنين من ملائكته ويأكلون من مائدة إبراهيم عليه السلام الدسمة.

والله في توراتهم المحرفة يدخل في عراك ومصارعة مع عبده ونبيه يعقوب، دامت ليلة كاملة. وعندما أوشك يعقوب أن ينتصر عليه، لجأ إلى خدعة مكّنته من كسب الجولة والغلبة، وهي أنه ضرب حُقّ (النقرة التي فيهارأس الفخذ) فخذ يعقوب حتى انخلع. وعلى الرغم من ذلك لم يتركه يعقوب إلا بعد أن باركه ونال منه لقب إسرائيل.

والله عز وجل في توراتهم إله خاص بهم: لا يحب غيرهم، لأنهم شعبه المختار. وأمّا الأمم الأخرى فهي كالأغنام لا يأبه بها الإله. ويبنون كراهيتهم للأجناس الأخرى، وعلى رأسهم العرب، على أساس من دينهم المحرف. فتراهم يذكرون في توراتهم قصة

يزعمون فيها أن نوحًا - نبي الله تعالى - سكر حتى استلقى وانكشفت سوأته، ولما رآه ابنه حام - أبو كنعان - ضحك منه وفضحه عند أخويه سام ويافث، اللذين ستراه دون النظر إلى عورته. وعندما أفاق نوح من سكرته، وعلم بما حدث من ابنه الأصغر حام، استنزل عليه لعنة الله قائلًا: (ملعون كنعان عبد العبيد يكون لإخوته. مبارك الرب إله سام، وليكن كنعان عبدًا لهم، ليفتح الله ليافث، فيسكن في مساكن سام، وليكن كنعان عبدًا لهم..). وظاهر في هذه القصة إرادة اليهود استعباد الكنعانيين أبناء حام - وهم لا ذنب لهم - وتزكية الإسرائيليين أبناء سام.

وكما صور اليهود نوحًا سكيرًا ليصلوا إلى أهداف معينة، تراهم أيضًا يصورون لوطًا عليه السلام سكيرًا وعاهرًا يزني بابنتيه في حالة سكر، وتحبلان منه وتلدان. وزعموا أن ابن البنت البكر عرف بـ(مؤاب)، أبو المؤابيين إلى اليوم، ليصلوا بذلك إلى هدف واضح أيضًا وهو تجريح أعدائهم المؤابيين، وكل ذلك باسم الوحي.

وصدق الله العظيم الذي قال في القرآن الكريم:

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾[آل عمران:٧٨].

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾[البقرة:٧٩].

وتدّعي توراتهم أن كل النساء غير اليهوديات مومسات. ويستحق القتل كل الجوييم - غير اليهود - أو العبيد أو الحمير حتى ذوو الفضل منهم. وأن من يقتل غير اليهودي يقدم قربانًا للرب [د. عويس: ثقافة المسلم...].

هل يمكن أن يكون هذا كتابًا إلهيًا مقدسًا لتعريف البشر بالله ﷻ وهدايتهم إلى طريقه؟!

إن هذا الاعتقاد الباطل هو الذي جعلهم لا يبالون بكل القيم في سبيل الوصول إلى أهدافهم كما هو واضح من بروتكولات حكماء صهيون. ولا يبالون في وصف أنبياء الله ﷻ بأوصاف لا تليق بهم كما قلنا. فها هم مثلًا - يصورون إبراهيم عليه السلام ديوثًا في سبيل حرصه على الحياة والمنافع الدنيوية.

فيذكرون في توراتهم أنه أغرى زوجته سارة بالذهاب إلى بيت فرعون بصفتها أخت إبراهيم من أجل الحصول على حظيرة من الغنم والحمير، قال لها: «قولي إنك أختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك..» [نفسه].

ويصورون يعقوب عليه السلام بأنه محتال، سرق النبوة من أخيه البكر بأسلوب قذر.

ويصورون ابنة يعقوب عليه السلام المسماة (دينة) بأنها زانية، زنا بها ابن رئيس المدينة المجاورة.

ويقولون في تلمودهم بأن عيسى بن مريم عليه السلام ابن غير شرعي، حملته أمه سفاحًا وهي حائض، من العسكري (باندارا)، وإنه كذاب ومجنون ومضلل وساحر ومشعوذ ووثني. ووصف تلمودهم المسيحيين بأنهم ليسوا أكثر من خرق حيض المرأة التي تُرمَى في القاذورات، وأنهم وثنيون وقتلة وفسقة وحيوانات قذرة وحمير وخنازير وكلاب.

ويصورون نبيهم داود عليه السلام يزني بامرأة أحد ضباطه، وتحبل منه، وذلك عندما رآها على السطوح فأعجبه جمالها، وأرسل زوجها الضابط إلى ميادين القتال ليهلك، ثم يتزوجها.

أي بشاعة هذه؟ إن هذا الكلام لا يمكن أو يعقل أن يكون من عند الله ﷻ، وبالتالي لا يمكن أن يكون صالحًا لهداية البشرية.

لقد حكى القرآن الكريم عن جوانب كثيرة من تفكير اليهود الديني وموقفهم من كتابهم ورسلهم. ومن ذلك ما حكاه عن:

ميلهم إلى الوثنية على الرغم من وجود نبيهم موسى عليه السلام بينهم، فقد قالوا له: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾[الأعراف:١٣٨].

وعندما عاد إليهم موسى بعد ملاقاة ربه، وجدهم عاكفين على عبادة عجل، قائلين: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾[طه:٩١].

وعدم تخليهم عن شغفهم بالوثنية بعد موسى عليه السلام كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾[البقرة:٩٢-٩٣].

وذكر القرآن نوعًا من تعنتهم مع موسى عليه السلام ويتمثل ذلك في قولهم له: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[النساء:١٥٣]. وذكر نوعًا من سوء أدبهم مع الله، فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾[المائدة:٦٤].

ونسبهم بنوة البشر لله تعالى، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾[التوبة:٣٠].

وألّهوا أحبارهم، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[التوبة:٣١].

وعدم تورعهم في تحريف كلام الله عز وجل كما حكى عنهم القرآن الكريم في الآية: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[البقرة:٧٩]، وفي الآية: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٧٥].

ومما حكاه القرآن الكريم عن موقفهم من رسلهم قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾[البقرة:٨٧]، وقوله تعالى: ﴿كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[البقرة:٦١]، وقوله: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾[البقرة:٩١].

ويتضح لك مما سقناه من أدلة من كتب اليهود ومن كتاب الله تعالى إلى أي درك وصلت هذه الديانة على أيدي هؤلاء البشر.

ثانيًا: جوانب من الحياة السياسية والاجتماعية في المجتمعات اليهودية:

إن الله تعالى لا يرضى لدينه أن يكون عنصريًا بعيدًا عن الإنسانية، ولكن اليهود بدلوا دين الله ﷻ وجعلوه عنصريًا لا يحمل للإنسانية رحمة، وافتروا على أنبياء الله تعالى ووصفوهم بكل النقائص والرذائل البشرية كما رأينا. ولهذا فلا غرابة أن يعيشوا في صراع وفتن مع الشعوب غير اليهودية إلى يومنا هذا.

ففي القرن السابع الميلادي بالذات، أوقعوا بين النصارى في أنطاكية والقائد الفارسي فوكاس، مما ترتب عليه وقوع مذابح فظيعة في نصارى أنطاكية. وساعدوا جيوش الفرس في محاربة نصارى الشام، وقتلوا بأنفسهم النصارى في الشام مثلما حدث في صور. وكان جزاؤهم أن عاقبهم هرقل ملك الروم عقوبة قاسية عندما علم بما ارتكبوه من مآسٍ في حق النصارى بالشام [خطط المقريزي].

لقد وصفهم القرآن الكريم وصفًا دقيقًا، يصور ما كانوا عليه في القرنين السادس والسابع الميلاديين من تدهور خلقي وانحطاط نفسي وفساد اجتماعي، جعلهم غير أهل لإمامة الأمم وقيادتها. ومن ذلك قول الله تعالى فيهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾[آل عمران:٧٥].

وقد ذاق العرب في يثرب (طيبة، المدينة، طابة) الويلات نتيجة لحرص اليهود على إثارة الفرقة والحروب بين الأوس والخزرج، واحتكارهم التجارة، وتسخير العرب في مصالحهم الاقتصادية. وعادوا الرسول ﷺ وكادوا له كيدًا عظيمًا، ومكروا به كثيرًا، ولكن الله عزّ وجلّ مكر بهم، وكانت مشيئة الله أن أجلاهم الرسول ﷺ عن المدينة، وأجلاهم عمر رضي الله عنه عن الجزيرة العربية تنظيفًا للمجتمع الإسلامي من شرورهم وآثامهم.

ب - جوانب من الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية في ظل المسيحية:

أولاً: الحياة الدينية:

وكذلك المسيحية؛ فبالإضافة إلى ما لحق بها من تحريف، فقد شابتها ألوان شتى من الوثنية والخرافات اليونانية والرومانية، اضمحلت في جانبها تعاليم المسيح الميسرة، وأصبحت على تعاقب العصور ديانة وثنية تحول بين الإنسان والعلم والفكر والمنطق.

ومن الأدلة الواضحة على ذلك ما ذكره باكستر الأوروبي Rev.James Houstom Baxter: History of Chrisianity in the Light of Modern Knowledge Glasgo, ١٩٢٦, p.٤٠٧ [نقلًا عن د. الفرت في بحثه المشار إليه سابقا]، والذي ترجمته:

(لقد انتهت الوثنية، ولكنها لم تلق إبادة كاملة، بل إنها تغلغلت في النفوس واستمر كل شيء فيها باسم المسيحية وفي ستارها، فالذين تجردوا عن آلهتهم وأبطالهم وتخلوا عنهم أخذوا شهيدًا من شهدائهم ولقبوه بأوصاف الآلهة، ثم صنعوا له تمثالًا. وهكذا انتقل الشرك وعبادة الأوثان إلى هؤلاء الشهداء المحليين، ولم ينته هذا القرن حتى عمت فيه عبادة الشهداء والأولياء، وتكونت عقيدة جديدة وهي أن الأولياء يحملون صفات الألوهية، وصار هؤلاء الأولياء والقديسون خلقًا وسطًا بين الله والإنسان، ويحمل صفة الألوهية على أساس عقائد الأريسيين (يأتي شرحها في كتابه ﷺ إلى قيصر) وأصبحوا رمزًا

لقداسة القرون الوسطى ووعيها وطهرها. وغيرت أسماء الأعياد الوثنية بأسماء جديدة، حتى تحول في عام ٤٠٠ ميلادي عيد الشمس القديم إلى عيد ميلاد المسيح).

وما ذكره الدكتور أبو الغيط في كلامه عن الوثنية في المسيحية ختمه بقوله:

(.. وهكذا كانت عبادة الأوثان في عصور الاضطهاد هذه يرتفع سوقها وينخفض تبعًا لتأييد النصارى للحكام الرومانيين وإقبالهم على تلبية رغباتهم في الولاء لتمثال القيصر، ومن يتباطأ عن ذلك كان مصيره الحرق والهدم والتدمير كما يقول بذلك التاريخ المسيحي كله، حتى طأطأت المسيحية رأسها أخيرًا للوثنية وغطرستها بعد طول التجاذب والصراع بينهما، فحيثما دخلت المسيحية بلدًا ووجدت أهلها مقيمين على الوثنية أقروهم على عبادتهم بالإضافة إلى المعتقدات المسيحية).

وابتدع النصارى الرهبانية، وأدخلوا في أناجيلهم ما لا تستسيغه الأفهام. فابن حزم [الفصل] - أحد رواد علم مقارنة الأديان - انتهى إلى نتائج خطيرة عندما درس المصادر الأصلية للمسيحية. ومن مناقشاته للنصارى في عقيدتهم قوله:

(.. وقالت (اليعقوبية): إن المسيح هو الله تعالى نفسه، وإن الله - تعالى عن كفرهم - مات وصلب وقتل، وإن العالم بقي ثلاثة أيام بلا مدبر، والفلك بلا مدبر، ثم قام ورجع كما كان. وإن الله تعالى عاد محدثًا، وإن المحدث عاد قديمًا،وإنه سبحانه تعالى هو كان في بطن مريم محمولًا به..).

(ولولا أن الله تعالى وصف قولهم في كتابه العزيز إذ يقول: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ﴾[المائدة:٧٢] وإذ يقول تعالى حاكيًا عنهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾[المائدة:٧٣]،وإذ يقول تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [المائدة:١١٦].

لولا ذلك لما انطلق لسان مؤمن بحكاية هذا القول العظيم الشنيع السمج السخيف. وتالله لولا أننا شاهدنا النصارى ما صدقنا أن في العالم عقلًا يسع هذا الجنون. ونعوذ بالله من الخذلان...).

ويقول في دحض هذا القول:

(.. ويلزم هؤلاء القوم أن يعرفونا من دبر السماوات والأرض، وأدار الفلك هذه الثلاثة الأيام التي كان فيها ميتًا... ثم يقال للقائلين بأن البارئ تعالى ثلاثة أشياء أب وابن وروح القدس. أخبرونا إذ هذه الأشياء لم تزل كلها وأنها مع ذلك شيء واحد إن كان ذلك كما ذكرتم فبأي معنى استحق أن يكون أحدهما يسمى أبًا والثاني ابنًا وأنتم تقولون إن الثلاثة واحد، وإن كان منها هو الآخر فالأب هو الابن والابن هو الأب وهذا هو عين التخليط. وإنجيلهم يبطل هذا بقولهم فيه: (سأقعد عن يمين أبي)، وبقولهم: إن القيامة لا يعلمها إلا الأب وحده،وإن الابن لا يعلمها، فهذا يوجب أن الابن ليس هو الأب... وإن كانت الثلاثة متغايرة - وهم لا يقولون بهذا - فيلزمهم أن يكون في الابن معنى من الضعف أو من الحدوث أو من النقص، به وجب أن ينحط عن درجة الأب. والنقص ليس من صفة الذي لم يزل...).

وخلاصة قول ابن حزم في عقيدتهم التي جاءت في أناجيلهم: (فهذه سبعون فصلًا من أناجيلهم من كذب بحت ومناقضة لا حيلة فيها، ومنها فصول يجمع الفصل من ثلاث كذبات فأقل على قلة مقدار أناجيلهم.

وجملة أمرهم في المسيح عليه السلام أنه مرة بنص أناجيلهم ابن الله ومرة هو ابن يوسف وابن داود وابن الإنسان، ومرة هو إله يخلق ويرزق، ومرة هو خروف الله، ومرة هو في الله والله فيه، ومرة هو في تلاميذه وتلاميذه فيه، ومرة هو علم الله وقدرته،

ومرة لا يحتكم على أحد ولا ينفذ إرادته، ومرة هو نبي وغلام الله، ومـرة أسـلمه الله إلى أعدائه، ومرة قد انعزل الله له عن الملك وتولاه هو وصار يولي أصحابه خطـة التحـريم والتحليل في السموات والأرض، ومرة يجـوع ويطلـب مـا يأكـل ويعطـش ويشـرب ويعرق من الخوف ويلعن الشجرة إذا لم يجد فيها تينًا يأكله، ويفشل فيركب حماره ويأخـذ ويلطم وجهه ويضرب رأسه بالقصبة، ويبزق في وجهه ويضرب ظهـره بالسياط ويميتـه الشرط، ويتهكمون به ويسقى الخل في الحنظل ويصلب بين سارقين ويسمر يـداه ومـات الساعة ودفن ثم يحيا بعد الموت ولم يكن له هم إذا حيي بعد الموت واجتمـع بأصـحابه إلا طلب ما يأكل فأطعموه الخبز والحوت المشوي، وسقوه العسل، ثم انطلق إلى شغله..).

ثم أخذ ابن حزم في بيان الكذب والكفر والهوس الذي جاء في كتبهم غير الأناجيل.

إن هذا المآل الذي آلت إليه المسيحية واليهودية، اقتضـى أن يـرسل الله ﷻ رسولًا آخر، هو محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، لإنقاذ البشـرية من هـذا الضـلال، ويكون الدين الخاتم لكل البشرية بعد أن أعدت لتلقيه.

ثانيًا: الحياة السياسية والاجتماعية في المجتمعات النصرانية:

حل القرن السادس الميلادي والحرب قائمة بين نصارى الشام والدولة الرومانية وبين نصارى مصر، أو بين الملكانية - التي يمثلها حزب الدولـة - والمنوفيسـية - التـي يمثلهـا حزب القبط - بعبارة أخرى، وذلك لاختلافهم حول حقيقة وطبيعة المسيح ﷺ، إذ يعتقد الملكانية في ازدواج طبيعة المسيح بينما يعتقد المنوفيسيون أن للسيد المسيح طبيعـة واحـدة. وأصبح العالم المسيحي في شغل بنفسه عن محاربـة الفسـاد والإصـلاح ودعـوة الأمـم إلى الخير. وابتلي القبط بمصر لاعتقادهم المخالف لاعتقاد الدولة.

وفي الدولة الرومانية الشـرقية - بالـذات - سـاءت أحـوال النـاس حتـى فضـلوا الحكومات الأجنبية على حكوماتهم. وقامت فتن وثورات.

وقد هلك في عام ٥٣٢م – مثلًا – في اضطراب واحد ثلاثون ألف شخص في القسطنطينية. وأمعنوا في أساليب التسلية التي وصلت إلى حد الوحشية.

وفي مصر البيزنطية ساد الاضطهاد الديني والاستبداد السياسي والبؤس والفقر، إذ كانت شاتهم الحلوب التي يحسنون حلبها ويسيئون علفها. ولم ينقذ المصريين من هذا الحال إلا المسلمون، كما يعترف بذلك من ينتسبون إلى النصرانية، أمثال غوستاف لوبون [في حضارة العرب].

وفي سورية البيزنطية سادت المظالم إلى الحد الذي اضطر كثيرًا من السوريين لبيع أبنائهم ليوفوا ديونهم [خطط الشام].

أما الأمم الأوروبية في الغرب والشمال فكانت تعيش حروبًا دامية وجهلًا مطبقًا وغلوًا في الدين. وكانوا يبحثون في قضايا مثل: هل المرأة حيوان أم إنسان، وهل لها روح خالدة أم لا؟ وهل لها حق الملكية والبيع والشراء؟.. إلخ.

جـ - جوانب من الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية في ظل المجوسية:

أولًا: الحياة الدينية:

لقد شاع في إيران قبل ظهور زرادشت – نبي قدماء الإيرانيين –، الاعتقاد بألوهية (ميثرا) و(بيما) و(آشاه)، وظل ذلك حتى بعد ظهور الزرادشتية، التي تأثرت بهذه الديانة الوثنية القديمة، التي تقدس بعض عناصر الطبيعة، مثل: النار والكواكب، ويعبد فيها آلهة متعددة.

أما الزرادشتية في أصلها فقد كانت حربًا على عقيدة ميثرا وبيما وآشاه، تلك العقيدة الوثنية [الشهرستاني]، إذ كان من أبرز مبادئ الزرادشتية دعوة الناس إلى عبادة إله واحد وهجر الوثنية والصابئية التي كانت تتمثل في عبادة بعض الكواكب وغيرها من القوى الطبيعية [نفسه]، والدعوة إلى تقديس عنصري الشمس والنار على أنهما رمزان لتلك

القوة الواحدة التي لا تفتأ تفيض رحمة ونورًا وعطفًا وطهورًا، وتعمل على إنقاذ الإنسان من البلاء [نفسه]، وتقديس التراب والماء والهواء لأهميتها في حياة الإنسان.

وبعد موت زرادشت، ظهرت فرقة المجوس الذين يعبدون النار ويرونها إلهًا ويستعملونها في شعائرهم الدينية، متناسين أنها كانت فقط رمزًا للضعفاء، حتى أصبحوا يعرفون بأنهم عبدة النار، وأحيانًا كهنة المجوسية. ومن الطقوس التي كانت موجودة من قبل زرادشت: عبادة الأصنام وتقديم القرابين، وبخاصة للإله (ميثرا) الذي أصبح أبرز الآلهة [آرثر].

ولما غزا الإسكندر المقدوني بلاد إيران في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، اختفت الزرادشتية ولم تظهر إلا بعد خمسة قرون عندما قامت الدولة الساسانية التي حاولت العودة إلى الزرادشتية باعتبارها جزءًا من تراث إيران، ولكن الزرادشتية الساسانية كانت بعيدة كل البعد عن اتجاهات زرادشت، وكانت تحقق أهداف الملوك وطغيان الكهنة.

وفي القرن الثالث بعد الميلاد ظهر (ماني) بمذهبه الذي كان مزيجًا من الزرادشتية والمسيحية والديصانية، وعده الزرادشتيون ملحدًا خارجًا عن الزرادشتية الدين الحق - أي عدوه زنديقًا - لأن ديانته ثنوية صريحة، إذ تقول بوجود كائن ثنائي الطبيعة، وبوجود مبدأ أو كائنين يسيطران على العالم، هما: مبدأ النور ومبدأ الظلام. الأول مصدر الخير والثاني مصدر الشر، ولكل منهما قدرة على الإدراك [الملل]. وعند امتزاج هذين الكائنين نشأ الكون بما فيه من ظواهر وحوادث وأجسام كثيفة وكائنات حية [نفسه]..

ويرون أن كل من يساعد على إطالة أمد امتزاج النور بالظلام هو شر كله، وفي مقدمة ذلك: الزواج والتناسل، ولذلك رأوا أن من الواجب أن يسلك الإنسان مسلك العزلة والرهبنة وأن يقطع دابر التناسل حتى يفنى العالم المادي ويتخلص النور من الظلام.

وفي سنة ٢٧٦م، قتله الملك الإيراني (بهرام بن هرمز بن شابور)، وقال عنه: (إن هذا الرجل قد جاء يدعو الناس إلى تدمير الكون، فالواجب أن يبدأ بتدمير نفسه) [الملل].

ومع هذا الاضطهاد، استمرت المانوية وتحولت إلى حركة سرية، وبقيت كذلك في الفترة الإسلامية [نفسه].

وظهر مَزْدَكٌ في أواخر القرن الخامس الميلادي (٤٧٨م)، وسار على تعاليم مَانِي، معلنًا شيوعية المال والنساء [نفسه؛ الغلو].

وأخذ الملك الإيراني قباذ بآراء مزدك وطبقها في المجتمع في السنوات العشر الأولى من حكمه، وعندما وقف على بطلانها وحقيقتها تحول عنها وقتل مزدكًا وأوقع بأنصارها سنة ٥٢٩م، فتحولوا إلى العمل السري أيام الدولة الساسانية، ثم عادت إلى الظهور من جديد في العصور الإسلامية [الملل؛ الغلو].

وظهرت في إيران كذلك الديانة المرقونية - نسبة إلى واضع أسسها (مرقيون) [الملل، الغلو] وعقيدتها ثنوية، لزعمهم أن النور خالق الخير والظلمة خالقة الشر [نفساهما]. وتأثرت بالزرادشتية والنصرانية

وكذلك ظهرت في إيران الديانة الديصانية [نسبة إلى واضع أسسها ابن ديصان]. وهي من الديانات الثنوية. وذهبت إلى ما ذهبت إليه المرقونية من وجود عالم ثالث إضافة إلى النور والظلمة، مهمته أن يفصل بين عالم النور وعالم الظلمة، ولم توضح كيفية وجود هذا العالم الثالث [نفساهما].

وابن ديصان الذي تنسب إليه هذه النحلة أول من مهد لفكرة الحلول، حيث زعم أن نور الله قد حل في قلبه [نفساهما].

ثانيًا: الحياة السياسية والاجتماعية في ظل المجوسية:

لقد شاع الفساد في إيران في ظل دياناتها الوثنية القديمة التي سبقت الزرادشتية، خاصة سكان البادية، فقد كان بعضهم يتعدى على بعض بالسلب والنهب وإزهاق الأرواح [زرادشت].

وعندما جاءت الزرادشتية حاولت القضاء على هذه المفاسد، ولكن إلى حين، وذلك لظهور عقائد أخرى مثل المانوية، والمزدكية.

وفي ظل المجوسية المنبثقة عن الزرادشتية، وفي ظل بقايا المانوية والمزدكية والديانات الإيرانية القديمة عاشت إيران في فوضى أخلاقية، وتشتت عقدي، وحروب دامية داخلية، وخارجية. فكثيرًا ما كان مقدسو النار يهزمون عبدة المسيح وينهبون أموالهم ويأسرون منهم. وأحيانًا كانت الدائرة تدور على الفرس - الإيرانيين - فيغلبهم الروم [تفسير ابن كثير].

وكان المجوس من الفرس لا يعبدون الإله الحق، ولم تتمكن الأخلاق الفاضلة في نفوسهم. وكان الأكاسرة يضطهدون الفرق الدينية المخالفة لهم في العقيدة.

ومن الممارسات الاجتماعية البارزة استحلال الزرادشتيين زواج المحارم، وقالوا: (الابن أحرى بتسكين شهوة أمه، وإذا مات الزوج فابنه أولى بالمرأة) [الغلو]، ولذلك تزوج ملكهم يزدجرد الثاني - حكم في أواسط القرن الخامس الميلادي - ابنته، ثم قتلها. وتزوج بهرام جوبين - الذي ملك في القرن السادس الميلادي - بأخته [تاريخ الطبري].

وحظيت الدعوة المزدكية بتأييد الشباب والأغنياء والمترفين والطبقة العامة لما صادفته من هوى في نفوسهم، وحظيت بتأثير الحاكم كما قلنا لفترة، مما كان له أكبر الأثر في نشاطها. وانغمست إيران بتأثيرها في الفوضى الخلقية [الملل].

وكان للإيرانيين اعتقاد في البويتات الروحية والأشراف من قومهم، إذ يرونهم فوق العامة في طينتهم، وفوق مستوى الناس في عقولهم ونفوسهم، ويمنحونهم سلطة روحية لا حدَّ لها، ويخضعون لها خضوعًا كاملًا.

وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تمييزًا واضحًا. وكان لكل طبقة مركز محدد في المجتمع [ماذا خسر العالم؛ آرثر].

وكانوا يبالغون في تمجيد القومية الفارسية، ويرون أن لها فضلًا على سائر الأجناس والأمم، وأن الله قد خصها بمواهب ومنح لم يشرك فيها أحدًا. وكانوا ينظرون إلى الأمم من حولهم نظرة ازدراء وامتهان، ويلقبونها بألقاب تدل على هذه النظرة [تاريخ الطبري].

ولما كانت النار لا توحي إلى عبادها بشريعة، ولا ترسل رسلًا، ولا تتدخل في شؤون حياتهم، ولا تعاقب العصاة المجرمين، فقد أصبحت الديانة عند المجوس - الذين حرفوا الزرادشتية الأصلية - عبارة عن طقوس وتقاليد تؤدى في أمكنة خاصة وفي ساعات خاصة. أما خارج المعابد، وفي دورهم وأماكن أعمالهم وفي الشارع وفي السياسة والاقتصاد والاجتماع وغير ذلك، فقد كانوا أحرارًا، يسيرون على هواهم شأن المشركين في كل عصر [الملل].

وهكذا حرمت الأمة الفارسية في حياتها - في ظل المجوسية - دينًا عميقًا جامعًا يكون مربيًا ومهذبًا وحاثًا على عمل الخيرات، ويكون نظامًا لكل أنشطة الإنسان والمجتمع والدولة، وحائلًا بين الناس وطغيان الأحكام [ماذا خسر العالم]. وهو ما وجدوه في ظل الإسلام.

وحرمت حكمًا رشيدًا لقمع الفساد، بل كان ملوكها عنصرًا أساسيًا من عناصر الإفساد، لأنهم تألهوا عندما لم يعبد الناس الإله الحق. وتنافسوا على العرش حتى إن ستة

منهم تولوا العرش في أشهر قليلة، وبذلك تدهورت حتى قيمة العرش وأصبحت كل موارد البلاد ملكًا لملوكها الذين وصل بهم الترف والبذخ إلى حد خرافي، ومثال ذلك أن يزدجرد، آخر ملوكهم، عندما فر أمام الفتح الإسلامي، كان معه ألف طاه وألف مغن وألف قيم على النمور وألف قيم على البزاة، وحاشية أخرى، ومع ذلك كان يعتبر نفسه لاجئًا حقيرًا في حالة يرثى لها من قلة الحاشية وفقدان أسباب التسلية. وعاش الشعب في بؤس وشقاء تثقل كاهله الضرائب والحروب [آرثر، الطبري في التاريخ].

د - جوانب من الحياة الدينية والاجتماعية في ظل الديانات الصينية:

أولاً: الحياة الدينية:

كانت تسود الصين في القرن السادس الميلادي ثلاث ديانات: ديانة لاتسو وديانة كونفوشيوس، والبوذية. أما الأولى فقد كانت وثنية، تعنى بالنظريات أكثر منها بالعمليات. وعاش أتباعها زاهدين رهبانًا، فانفض عنها إلى غيرها الذين جاءوا بعد مؤسسها [ماذا خسر العالم].

وأما كونفوشيوس فقد كان يعنى بالأمور العملية أكثر من النظريات، ولكن انحصرت تعاليمه في شؤون الدنيا. وكان أتباعه لا يعتقدون - في بعض الأزمنة - بعبادة إله معين، ويعبدون ما يشاؤون من الأشجار والأنهار [نفسه].

واتجهوا إلى كونفوشيوس يبنون له الهياكل ويعبدونه، ويقدمون أمام تماثيله الذبائح والقرابين ويركعون لها.

وشاعت في الصين قبيل الإسلام عبادة الأرواح، وبخاصة عبادة أرواح الآباء والأجداد، إذ كانوا يعتقدون أن هذه الأرواح تعيش معهم بعد وفاة أصحابها [شلبي: الإسلام].

وأما البوذية الصينية فقد فقدت حتى القدر القليل جدًا من بساطتها، وابتلعتها البرهمية الثائرة الموتورة، فتحولت وثنية تحمل معها الأصنام حيث سادت، وتبني

الهياكل وتنصب تماثيل بوذا حيث حلت. وغمرت هذه التماثيل الحياة الدينية والمدنية التي ظهرت في عهد ازدهار البوذية [ماذا خسر العالم]. وتسربت إلى مناهج الحياة والعبادة السحر والأوهام، وبدأت تتقهقر وتنحط بعد أن سادت ألف سنة [نفسه].

ثانيًا: الحياة الاجتماعية:

ليس في الديانات الصينية، الكونفوشيوسية أو التي سبقتها نور من يقين ولا باعث من إيمان ولا شرع سماوي يحلون به مشاكل العالم، وإنما هي حكم حكماء وتجارب خبراء، يستفيد بها الإنسان إذا شاء، ويرفضها إذا شاء [ماذا خسر العالم]. ونتج عن ذلك - مثلًا - تمجيد الذكور كما كان يفعل العرب في جاهليتهم، فعندما يبشر الصيني بالذكر يعلق القوس والنشاب على الباب، دليل مولد الذكر الذي يحمي العشيرة، أما إذا بشر بالأنثى علق على بابه مغزلًا، دليل الخنوع والضعف [شلبي الإسلام].

وفي ظل البوذية الصينية قامت دول تعنى بمظاهر الآلهة وعبادة التماثيل. وتغير محيط الروابط الأخوية البوذية وظهرت البدع والخزعبلات ولم تمنع الفلسفة الكونفوشيوسية وجود نظام طبقي اجتماعي، وإن كان أقل حدة من النظام الطبقي البوذي الذي ساد في الهند كما سنرى في الصفحات التالية [نفسه].

هـ - جوانب من الحياة الدينية والاجتماعية في ظل الديانات الهندية:

أولًا: الحياة الدينية:

سادت في الهند الديانة البرهمية التي عبد أتباعها القوى المؤثرة في الكون، والتي جسدوها ثم اعتقدوا حلولها في بعض الأجسام، فعبدوا الأصنام لحلولها فيها. وتعددت آلهتهم. ثم حل بعقائدهم التغيير والتبديل حتى انحصرت الآلهة في ثلاثة أقانيم: براهما، وسيفا أو سيو، ويشنو [الديانات القديمة لأبي زهرة].

ومن بعد البرهمية سادت البوذية في الهند. والبوذية لم تعن بالبحث عما وراء الطبيعة، بل كانت عنايتها تتجه إلى الإصلاح الاجتماعي عن طريق رياضة الإرادة على الحرمان، وتعويدها السيطرة والرغبة في الملاذ لكيلا تشقى بطلبها ويحز فيها الحرمان [نفسه].

وبمرور الزمن، أظلت الأفكار العليلة تعاليم بوذا الخلقية، حتى توارت وراء التخيلات السقيمة بسبب الترقيعات الكلامية والتنطعات. وانحطت البوذية كما انحطت البرهمية ودخلت فيها العادات الساقطة، وأصبح من العسير التمييز بينهما. لقد اندمجت البوذية في البرهمية وذابت فيها [ماذا خسر].

وسادت الوثنية المجتمع الهندي بأسره حتى وصل عدد الآلهة حدًّا خرافيًا، ووجدت في كل مرفق من كل نوع. فمنها أشخاص تاريخية وأبطال تمثل فيهم الله - حسب زعمهم - وجبال تجلس عليها بعض آلهتهم، ومنها معادن كالذهب والفضة تجلى فيها إله، ومنها نهر الكنج وآلات الحرب والكتابة وآلات التناسل وحيوانات أعظمها البقرة، والأجرام الفلكية [نفسه].

ثانيًا: الحياة الاجتماعية:

اتفقت كلمة المؤرخين على أن أحط أدوارها ديانة وخلقًا واجتماعًا ذلك العهد الذي يبتدئ من مستهل القرن السادس الميلادي. إذ انتشرت فيه المفاسد حتى في المعابد الدينية. وعبد بعض رجال الفرق الدينية النساء العاريات، وعبدت النساء الرجال العراة [نفسه]. ولم تعد للمرأة قيمة أو كرامة، حتى أن الرجل ليخسر امرأته في القمار، ولا تتزوج بعد وفاة زوجها.

وانتشرت عادة إحراق الأيامى نفوسهن على وفاة أزواجهن، خاصة في الطبقات العليا [نفسه]، وأنزلت النساء في هذا المجتمع منزلة الإماء [نفسه].

وقامت فلسفتهم الدينية على تقسيم المجتمع إلى أربع طبقات، وهي:

١ - البراهمة - الكهنة ورجال الدين.

٢ - شترى - رجال الحرب.

٣ - ويش - رجال الزراعة والتجارة.

٤ - شودر - رجال الخدمة - خدمة الطبقات الثلاث السابقة.

وهذه الطبقة الأخيرة تعد نجسة، لا تخالط ولا تتعلم حتى الكتب المقدسة [نفسه]. وكفارة قتل الكلب والقطة والضفدعة والغراب والبومة ورجل الطبقة المنبوذة سواء [نفسه]. أما البراهمة فهم فوق القانون ويحل لهم إبادة الآخرين [نفسه].

هذا الفساد والضياع الذي عاشه العالم في الجزيرة العربية وخارجها كان يقتضي إرسال رسول، فأرسل الله سبحانه محمدًا ﷺ للناس كافة عربهم وعجمهم لينقذهم من هذا الضياع والانحراف، ويخرجهم من الظلمات إلى النور.